

الإهداء

إلى والديّ براً وإحساناً
إلى والديّ براً وإحساناً
إلى والديّ براً وإحساناً
إلى والديّ براً وإحساناً
إلى والديّ براً وإحساناً
إلى والديّ براً وإحساناً

رفعة

المقدمة

مقدمة:

الحمد لله القائل في محكم تنزيله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)، وهو سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الذي طلب منا في العديد من الآيات التأمل والتفكر في مخلوقات الله وبديع صنعه، والنظر في أحوال الأقوام السابقة، والسير في الأرض للاعتبار بأحوالهم، وما صارت إليه مآلاتهم، من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ (يوسف: ١٠٨ - ١٠٩)، ومن مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠) ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ﴾ (يوسف: ١١٠ - ١١١)، ولتأمل خطاب الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (يوسف: ١٠٩).

أما بعد:

فالتاريخ عبارة عن دراسة أحوال بني الإنسان، وحركتهم على هذه الأرض، ورصد معاملاتهم المختلفة، ودفع بعضهم بعضاً، وما ينتج عن ذلك الدفع من نتائج وتطورات؛ ومن ثم فالتاريخ هو سجل العصور الغابرة^(١)، ولعل من ثمار هذا العلم النافع وفوائده التدبر في أحوال الأمم والدول، وعوامل بنائها ونهوضها، وأسباب سقوطها وزوالها، والنظر في سنن الله في الآفاق، وفي الأنفس والمجتمعات على اختلافها، وتأمل مواقف الأقوام

(١) هرنشو : علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م،

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

والشعوب المختلفة، ومعرفة الآجال وحلولها وانقضاء العدد، وأوقات التأليف، ووفاء الشيوخ، ومواليدهم، والرواة عنهم، فتعرف بذلك كذب الكذابين وصدق الصادقين^(١). ولا شك في أن التاريخ الإسلامي هو تاريخ دين وعقيدة قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية، حيث إن العقيدة هي التي أنشأت هذه الدولة الإسلامية مترامية الأطراف من إسبانيا وحدود فرنسا غرباً إلى إندونيسيا وكيب تاون في أقصى الشرق من الكرة الأرضية، وعبر مدائن الإسلام والمسلمين الزاهية بحضارتها في قرطبة وبغداد ودمشق وتبريز وأصفهان والقاهرة.. وغيرها كثير.

ومن أجل هذا؛ فإنه لا بد من دراسة التاريخ الإسلامي وفق منهج علمي صحيح، ومن هنا تظهر أهمية ما اصطلح على تسميته بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتدوينه، وضرورة المعرفة بقواعد هذا المنهج، وأهدافه ووسائل تحقيقه، والالتزام به، وذلك كي لا تنحرف الدراسات التاريخية عن الصواب، فنأتي بآراء وتفسيرات مضادة للتصور الإسلامي عن الكون والحياة وسير الأحداث، وحتى لا نأتي بتفسيرات للتاريخ تضرب في صميم ثوابت هذه الأمة، وتمز الثقة في صدور الأجيال الناشئة؛ ومن ثم فمن خصائص التاريخ الإسلامي طريقة إسناد الروايات إلى أصحابها عبر الأجيال المتلاحقة، وهو ما اصطلح على تسميته "الجرح والتعديل" عند المحدثين^(٢).

لقد كثرت الانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي، وأتبع في كتابته وتدريسه مناهج وأفكار ومبادئ غريبة عليه، ومنشأ هذه الانحرافات قد يكون راجعاً إلى:

١- الانحراف الفكري في التصور عند أولئك الذين تولوا كتابة التاريخ، وفي صدورهم ميلٌ وهوى لمذهب أو لفرة أو لكيان أو لحاكم.

(١) السيوطي: الشماخ في علم التاريخ، تحقيق أنور زناطي، محمد سالم صقر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ١٠٠.

(٢) محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، دار المنار، القاهرة، ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٦٠.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

- ٢- الشعور بالروح الانهزامية، وفقدان الثقة أمام الحضارة الغربية التي ما كان لها أن تنهض إلا على إبداعات الحضارة العربية الإسلامية.
 - ٣- التقصير في التوثيق العلمي ونقد الروايات.
 - ٤- ضعف الاعتزاز بالروح الوثابة التي حملت مشاعل الفتوح الإسلامية في كافة أصقاع الأرض، وخضوع الكثير من المؤرخين لحاكم بعينه في مقاطعة بعينها، ثم اجتيازها من جسد الإمبراطورية المترامية الأطراف.
 - ٥- فشل كل المحاولات التي سعت إلى كتابة التاريخ الإسلامي من خلال فرق عمل متخصصة لتوحيد المواقف والتفسيرات، والابتعاد عن الأهواء، من مثل مشروع دائرة المعارف التاريخية العربية، ومشروع إعادة كتابة تاريخ العرب والمسلمين^(١).
- وهناك محاولات عديدة لإعادة كتابة تاريخنا العربي والإسلامي، ولكنها ظلت كونها محاولات لم تر النور، رغم أهمية هذه المحاولات فيما يتعلق بضرورة تنقية تاريخنا مما شابه من دس، ووقية، وافتراءات، وروايات مكذوبة. والمطلّع على مصادرنا التاريخية يشعر بضخامة الانحراف والخطأ الذي وقع فيه كثير من المؤرخين، قدامى ومحدثين؛ فالتقدمي جمعوا الأخبار صحيحها وسقيمها، ودونوها في كتبهم، ومنهم ذوو ميول وأهواء، فاستطاعوا - عن وعي أو عن دون إدراك - توجيه الأحداث حسب أهوائهم، ومنهم عدول ثقات، ولكنهم يجمعون ويدونون كما أشار الذهبي على لسان أحدهم: (إذا كتبت فقمّش وإذا حدثت ففتّش^(٢))، و سنعود إلى قضية التقميش والتفتيش لاحقاً بمشيئة الله تعالى.
- أما فيما يختص بالباحثين المحدثين؛ فقد قام بعضهم - وهو كثير - بعرض المادة التاريخية كما وردت بنصوص المصادر، وصار الأمر مجرد حفاظ على سلامة النقل وحسب، دون تمحيص أو تفحص، وصبغ البحث نفسه بنفس اللغة المستخدمة في المصادر.

(١) أنظر: مجلة المجتمع الكويتية، عدد ٢٣٢، محرم ١٣٩٥ هـ.

(٢) محمد بن أحمد بن قايّاز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وبشار عواد، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ٨٥/١١.

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

وصار - لزاماً - والحالة هذه - القيام بدورين رئيسيين:

الأول: تحقيق الروايات التاريخية حسب القواعد النقدية الصارمة التي اتبعها علماء الحديث الشريف مع بعض الاستثناءات التي سترد في موضعها من هذا المبحث.

الثاني: صياغة التاريخ الإسلامي وفق التصور الإسلامي الصحيح، ووفق أسس ومناهج صحيحة منطلقة من فهم دقيق لدور المؤرخ والباحث، والمنحصر في عدم التحول إلى بوقٍ دعاية تمجّد وتنحاز بشكل انفعالي، والعكس صحيح^(١).

ومن أجل المساهمة في تحقيق هذين الدورين المشار إليهما، وبغية وضع صياغة صحيحة عن تاريخنا الإسلامي ومواقف رجاله؛ تجدر الإشارة إلى عدة أمور:

- ١- يتخذ بعض المثقفين موقفاً سياسياً سلبياً من فكرة الخلافة، كون معاوية بن أبي سفيان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قد اغتصبها، وحوّلها إلى مُلْكٍ عضود، وكأننا ملزمون بتبني نفس الموقف السلبي من نظرية الخلافة، وكأننا ملزمون بأخذ موقف سلبي من كل خلفاء الأمويين والعباسيين لمجرد أن فريقاً قد أخذ هذا الموقف.
- ٢- نسي هؤلاء وأولئك - أو تناسوا. أن التركة التاريخية والحضارية التي خلفها لنا الأجداد ثرية وغنية، وعلينا بحثها وتحقيقها وتصويب أخطائها، ونهل الدروس المستفادة منها، ولا يكون ذلك إلا بإعادة تناول تاريخنا العربي والإسلامي بحثاً وتنقيحاً.
- ٣- يجب إعادة الاعتبار إلى كل الرموز الإسلامية التي أساء لها بعض مؤرخينا القدامى عن قصد أو دون قصد، فقد طال الخليفة الناصر لدين الله العباسي ما قد طال هارون

(١) قام ثلة من مؤرخي الإسلام وفقهائه عبر العصور بهذه المحاولة ومنهم على سبيل المثال ابن حزم في كتابه الشهير الفصل في الملل والأهواء والنحل، وابن العربي المالكي في كتابه الماتع العواصم من القواصم، وابن تيمية في كتابه الفريد درء تعارض العقل والنقل، وابن خلدون في مقدمته الشهيرة، والسخاوي في كتابه النفيس الإعلان بالتوخيخ لمن ذم التاريخ، وغيرهم كثير، ومن المحدثين الذين اهتموا بالدفاع عن التاريخ الإسلامي: محمود شاكر في موسوعته الشهيرة عن العالم الإسلامي، ويحيى هاشم حسن فرغل في كتابه دفاع عن التاريخ الإسلامي، ومحمد رشاد في كتابه المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، وعفت الشرقاوي في كتابه: "في التفسير الإسلامي للتأريخ"، وعبدالحليم عويس في كتابه: "تفسير التاريخ علم إسلامي".

منهج البحث الحديث في التاريخ الإسلامي

الرشيد مع اختلاف الفرقة، وكما نجح بعض الباحثين المخلصين في إعادة الاعتبار لشخصية الرشيد؛ فقد نجحت بحمد الله في رد الاعتبار لشخصية الناصر لدين الله. وها أنا أسعى لإخراج هذا الكتاب إلى النور، ووضعه بين أيدي القراء، مدركة سلفاً أن صداه قد يتراوح ما بين مؤيد ومعارض، ولولا كتاب يثير الجدل والنقاش، ما راجت بضاعة الوراقين وحاملي القراطيس، ولا تقدمنا خطوة للأمام على طريق العلم والمعرفة. فهذا هو مبلغ من العلم، إن أصبت فبتوفيق من الله - عز وجل -، وإن كانت الأخرى فمن نفسي، وحسبي محاولة الاجتهاد.

